إيلا شوحط *

هويات ممزقة...**

تأملات (امرأة) يهودية ـ عربية

تأتي كتابة هذه السطور، بهدف توسيع النقاش حول تعددية الثقافات بما يتخطى معايير الهوية المتبعة في توجيه سجل النفوس (السكان) الأميركي.. ففي الوثائق الرسمية يتعين على المهاجرين من الشرق الأوسط وشمال إفريقيا تعبئة خانة الانتماء الإثني والعرقي الـ «أبيض». هذا التصنيف يقف في تناقض عميق مع خبرة وتجارب العنصرية في حياتهم اليومية بسبب كونهم من غير البيض. وفي هذا السياق، فإن إحدى الهويات التي تنطوي مناقشتها على إشكالية وتعقيد بالغين، هي الهوية اليهودية ـ العربية، التي يغيب حضورها عن كل محافل النقاش المتعلقة بالشرق الأوسط عامة، وبإسرائيل على وجه الخصوص. وأود هنا أن أسجل اعتراضي على الطريقة «الأورو ـ مركزية» التي يواجهون بها اليهودي مع العربي كقطبين متعاكسين، وهم بذلك يتنكرون لوجود هوية يهودية ـ عربية. في الصفحات التالية سأبدأ برسم صورة مأزقي كيهودية ـ عربية، ومأزق جاليتي. ولعل ذلك يشكل مدخلاً للتأمل في مساحات مُجزأة، مبتورة، وفي ذكريات محظورة.

في حرب الخليج، تصادمت بقوة المقاطعات الثقافية الثلاث المكوّنةِ لتاريخي الممزق، المقتلع، والمبعثر بين العراق، إسرائيل والولايات المتحدة الأميركية. وقد دفعتني شدة الصدمة، لأن أدون مجموعة من التأملات والخواطر بضمير المتكلم المفرد الأول، لتضيء «من الهامش» زاوية رؤية أخرى حول العقدة الشائكة للحرب. بيد أنني شعرت، أكثر من أي شيء، أنني بحاجة ماسة لأن أنهض وأصرخ بملء فمي، على مرأى ومسمع العالم كله: «نحن موجودون!». وللمرة الأولى في حياتي، أعطيت لنفسي حرية الكتابة بصراحة، وعلى نحو ربما يمكن وصفه كـ «يوميات حرب». وقد كان في هذا الاختيار، ضمن مفهوم معين، ما يضيف إلى بحثي النظري بُعد الشهادة الشخصية. وفي مفهوم آخر، كان هنا ثمة أمل خفي في أنه ربما في مقدور الصرخة الشخصية تعرية الألم، حتى ننهض مكشوفين ودون معوقات ونقف في وجه الضغط الهائل الذي يُهدد بمحونا من خريطة الهويات.. إنني أرفض تذويب، وإخفاء وحلّ عُقدة هويتي الشائكة، فقط لمجرد أن ذلك ينطوي على تسهيل لإيجاد تصنيفات قومية وإثنية محددة، واضحة ومتسقة.. إنني وفي هذا البيان، أرفع عقيرتي ضد الكتابة البحثية والصحافية، وضد وابل الصور

* محاضرة للدراسات الثقافية في جامعة نيويورك.. وتتناول مقالاتها الثقافة السياسية، الحركة النسائية، الكولونيالية وتعدد الثقافات.

** هذا المقال ورد ضمن كتاب المقالات للبروفيسورة إيلا شوحط «ذكريات ممنوعة: صهيونية، شرقية، حركة نسائية» والذي سيرى النور في سلسلة «قوس الشرق ٢» لـ «بيمات كيدم لسفروت»..

حياة المهاجرين اليهود الشرقيين في «المعبراه» (مخيمات الانتقال) في مطلع سنوات الخمسين

والأحداث الذي يغرقنا، لكنه يبني بصورة منهجية، غيابنا. وهكذا، وعوضاً عن التعاون مع الرواية التي تموه آثار وجودي، فإن غايتي هنا هي إعادة تمويه الحدود الثقافية والسياسية التي أوجدت وأبقت المحو الأكبر.

أنا يهودية عربية، وعلى الأدق، عراقية ـ إسرائيلية، تعيش وتكتب وتُدَرِّسُ في الولايات المتحدة الأميركية. معظم أفراد عائلتي وُلِدوا وتربوا في بغداد، وهم حالياً مشتتون في بقاع العالم، يحافظون في شتاتهم على «عراقية» تتأقلم في مشاهد أخرى وفي خليط لغات أخرى. يعيش غالبية أفراد عائلتي في إسرائيل، والبعض في الولايات المتحدة وهولندا، في حين وصل أقارب من طرف بعيد، إلى إنكلترا والهند والصين، بينما لم يبق بعدما هُجِّرَت الجالية، سوى قلائل فقط في العراق.

في أوائل الخمسينيات، كانت جدتي، عندما التقت للمرة الأولى بالمجتمع الإسرائيلي، مقتنعة بكل جوارحها أن جميع أولئك الإشكناز ـ الغربيين ـ الذين تحدثوا، أكلوا، لبسوا وتصرفوا بصورة مختلفة تمام الاختلاف عن يهود بغداد، ما هم في الواقع إلاّ أوروبيون مسيحيون. فأن تكون يهودية، فذلك مرتبط، وفق خبرتها وفهمها، بمسلمات ومثل وأنماط سلوك مغايرة، بمعنى، بنسيج حياة ثقافي مماثل للذي تعلمته وخبرته.. جدتي لا تزال تعيش في إسرائيل. وبالرغم من مرور عشرات السنوات منذ الصدمة الناجمة عن الانتقال (النزوح)، ظلت اللغة العربية الدارجة على لسانها (باللهجة اليهودية ـ البغدادية) لغتها الوحيدة حتى يومنا هذا. لكن في إسرائيل، بدت فجأة عربيتها وحياتها في العراق حتى سن الأربعين، كما لو كانا حلماً غريباً أو خرافة خيالية. ولكن، ها هي جدتي، التي كانت تقول إنه «عندما يظهر مسلم في حلم، فإن هذا فأل خير..» قد تعلمت التحدث عن «نحن» في مقابل «هم». وبينما هي في إسرائيل تقصد بـ «نحن» جميع اليهود أينما كانوا، وبـ «هم» العرب، فقد تحدثت في العراق عن «نحن» اليهود، في مقابل «هم» المسلمين.

التمييز الذي كان متبعاً عند أبناء جيلها في أنحاء العالم العربي، كان مرتبطاً في أساسه بالدين: بين مسلمين ويهود ومسيحيين، وليس بين يهود وعرب. كان الفهم أو الافتراض، هو أن اللغة العربية تشكل لبنة في مبنى ثقافي يشمل انتماء لجاليات تنبع هويتها، فيما تنبع، من انتمائها لدين.

ويثير التصريح عن هوية يهودية ـ عربية، في صفوف أميركيين كثيرين فضولاً معرفياً، أو أنه يولد، على الضد، حيرة ودهشة غرابة السحر.

بروفيسورة في الجامعة التي دَرَّستُ فيها اعتقدت أنني حالة مأساوية لهجينة من أب عربي فلسطيني وأم يهودية ـ اسرائيلية.. فهي لم تفلح في هضم تفسير آخر لمصطلح «يهودية ـ عربية» وهذا على الرغم من أنني أسهبت في تقديم الشروحات عن تاريخ اليهود ـ العرب. وعلى ما يبدو فقد نجح، خلال أقل من جيل واحد، نمط الحديث عن «يهود في مقابل عرب» في ترك بصماته، حيث تحول إلى تعبير دارج، ترسخ وأضحى

طبيعياً.

إن أية محاولة للعودة إلى ذاكرة تروي حكاية واحدة، تصطدم بِشُرَطيٍّ الحاجز، وبالحدود الممنوع عبورها.. إن الحرص الشديد على الحدود الثقافية في إسرائيل، هو بالذات ما دفعني ودفع آخرين إلى الهروب إلى عواصم عالمية، مسموح فيها، ولو ظاهرياً، عيش التناقضات والتباينات القائمة في هويتنا.. لكن، حتى في أميركا الشمالية، أُعطي لنا الإذن في أن نتحدث عن ذاكرة واحدة ووحيدة، الذاكرة اليهودية الأوروبية. أما الذين يصرحون عن عروبتهم اليهودية، إلى جانب تلك التي تخص مسيحيين ـ عرباً، ومسلمين عرباً، فيصطدمون بإنشداه و«نحنحة» مؤدبة، وكذا أيضاً بتذمر وإصبع مؤنبة.. الذين يرفضون بيننا إخفاء عروبتنا وتغليفها بعباءة الـ «نحن» اليهودي الواحد، يُقابَلُون بنظرات نارية وبأبواب توصد بقوة. وهكذا، أضحت إدارة حياتنا، في السياق الأميركي المناوئ لكل شيء، تنطوي على صلة بالعربية والشرقية، معقدة وشائكة أكثر فأكثر.

أن تكون (المرأة) يهودية ـ أوروبية، أو يهودية ـ أميركية، فهذا ما لم يُفهم مطلقاً كتناقض.. أما أن تكون يهودية ـ عربية فهذا أُعتبر بمنزلة مفارقة منطقية، بل وحتى ضربٌ من ضروب الخيال.. لقد أدت فكرة النقاء القومي إلى فصم الهوية وتجزئتها إلى جزءين، وهو ما انتشر في أعقابه بين اليهود ـ العرب انفصام كياني. وللمرة الأولى في تاريخنا، طُرحت العربية واليهودية كقطبين متعاكسين لا يستطيع أحدهما أن يحتوي الآخر.

كثيراً ما أجد نفسي مَدعُوَّةً لأن أشرح «الغموض» الذي يكتنف هويتي. «عربية ـ يهودية؟! كيف يكون ذلك؟!» هذا السؤال أواجهه مراراً وتكراراً، فأجد نفسي مجدداً مضطرة لأن أشرح لهم أن في بيتنا تحدثوا باللغة العربية وليس بلغة «الإيديش»، وأنه على مَرِّ أجيال عديدة، عَبَّرَ أبناء جاليتي عن ابداعاتهم ونتاجاتهم الدينية والعلمانية باللغة العربية في شكل أساسي (وأذكر هنا فقط النبي موسى الذي استطاع من بين سائر المفكرين اليهود ـ العرب أن ينفذ إلى وعي الغرب). وحتى الجاليات والطوائف المحافظة جداً من بين الجاليات اليهودية في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا لم تنطق أبداً في الصلوات العبرية بلهجة إشكنازية ـ غربية، ولم تُقم طقوساً دينية بطريقة الإشكناز.. فأبناء هذه الطوائف (الرجال) لم يغطوا جسمهم بثياب السواد التي مصدرها في بولندا، ما قبل بضع مئات من السنين. وعلى نحو مشابه، لم تلبس النساء الشرقيات مطلقاً (باروكات) الشعر، حيث لاعم غطاء رؤوسهن نمط اللباس المحلي في مناطقهن، مثل «الشكسة» على رؤوس النساء العراقيات اليهوديات.

وعندما بدأت الامبريالية الفرنسية والبريطانية بالدخول والتغلغل إلى الشرق الأوسط وإلى شمال افريقيا، وأقام حَمَلَةُ لوائها اليهود ـ الأوروبيون مدرستهم (مثل الإليانس) التي فرضت لباساً غربياً «متمدناً»، استبدل اليهود من الطبقة العليا والمتوسطة لباسهم التقليدي، وغطوا أنفسهم بملابس غربية.. اليوم، ورغم الانقطاع عن الدول العربية، سَيُفاجَأ كل من يدخل إلى كنس الطوائف الشرقية في نيويورك، مونتريال، باريس أو لندن، بالأجواء والصلاة والنشيد المنساب بإيقاع رتيب، كما لو أنه قد دخل إلى مسجد.

أدبيات الحرب، تحب التوزيع الصارم للأقطاب الأخلاقية : أخيار مقابل أشرار. هذه التقسيمات لا تبقي محلاً للاعتراض على الرواية التاريخية المهيمنة، أو لتعبير مركب للهوية. وقد أسهمت حرب الخليج فقط في تعميق الجزع والتوتر القائم لديّ ولدى أمثالي في الهوية بين العراق واسرائيل والولايات المتحدة. بداية هذا التوتر كانت في النزاع الإسرائيلي ـ العربي، وفي الحاجز الذي شيد بشكل بارع في أعقاب ظهور القومية اليهودية والعربية.. وقد اضطر والداي إلى الرحيل مصطحبين معهما قليلاً من المتاع الذي سمح لهم بحمله، تاركين بلدهما، العراق، من دون أن يستطيعا العودة إليه.. وفوق كل شيء، فقد وقفا للمرة الأولى في حياتهما في مواجهة مسألة الوجود والهوية : أن يكونوا أو لا يكونوا يهوداً .. أن يكونوا أو لا يكونوا عرباً. في حرب الخليج، نبشت ذاكرة المسألة الوجودية التي فرضتها الظروف، جروحاً قديمة، يبدو أنها لم تندمل أبداً، والآن تكشَّف عمقها كبئر لا قاع لها... خلال الحرب، حينما كان أبناء عائلتي وأصدقائي المقربون في إسرائيل يعيشون في ظل رعب صواريخ سكاد والصواريخ الكيميائية، حبست نفسي بين جدران شقتي في نيويورك في وضع أشبه بالاعتقال المنزلي الإجباري، مشدودة إلى جهاز التلفزيون والهاتف وكانت كل صفارة إنذار تنطلق في إسرائيل، ممزقة شاشة التلفزيون، تجر في إثرها اتصالات تليفونية ملهوفة، مُضنية ولا نهائية في صراعهم الضاري ضد تيار الخطوط الدولية المشغولة. ظاهرياً، وفي لَجَّةِ المشاعر هذه، التي جرت على محور إسرائيل ـ الولايات المتحدة، كان ثمة ما يغري أمثالي على إخفاء وتحاشي ونبذ كل ما يتصل بماضيّ العراقي... لكن بغداد الموجودة في داخلنا لم تستسلم، بل انفجرت بقوة لتعطل خلايا النسيان... بغداد لم تكن مجرد ذكريات عائلية مبهمة، وإنما حاضر حيّ ونابض راح يَختنق ببطء أمام أنظارنا.. الجزع على سلامة أقربائي في إسرائيل أُستبدل بالألم الذي أحسستهُ تجاه ضحايا الغارات على العراق، هناك حيث بقي، كما اتضح، أقارب من طرف بعيد لعائلتي لم تتح لي الفرصة كي أتعرف عليهم.

لقد عملت جغرافيا الهويات في الحرب ضد الهوية التي هي في نفس الوقت عراقية واسرائيلية.. وكنا نحن مدعوين إلى محو كل بصيص حنين، وازالة كل بقعة عراقية في ذاكرتنا.. الجاليات التي عاشت في

المنطقة منذ القدم، وعلى الأقل منذ «سبي بابل» مرت بالتدريج، منذ قدوم الحضارة الإسلامية ـ العربية، في عملية اندماج في الثقافة العربية، ومن هنا أتى كيانها الثقافي اليهودي ـ العربي.. ومنذ ظهور القوميات، وخصوصاً منذ قدوم الصهيونية، امتد النزاع ليصل أيضاً إلى العراق، الذي تحول إلى ساحة صراعات غيرت واقع حياة اليهود فيه بصورة جذرية. وسواء بدافع الرغبة والتطلع إلى «الهجرة» إلى «أرض إسرائيل»، أم بدافع الجزع والخوف على مصيرهم في العراق، غادر يهود العراق وتشتتوا نحو السبي البابلي الثقافي في إسرائيل. وحينما اقتلعوا من أرضهم وعبروا الحدود إلى إسرائيل، فرضت عليهم هوية يهودية جديدة، واحدة، أوروبية، هوية مؤسسة ومبنية على تجارب وذكريات مصدرها في روسيا وبولندا وألمانيا. الـ «يهودي الجديد» الذي كان عليهم محاولة محاكاته، كان بالنسبة لهم خدعة ومناورة في التدمير الذاتي.. وبالفعل، فإن مظاهر النكسة المعنوية والانهيار الجسدي والضمور الثقافي، لم تتوان أو تتأخر في القدوم.

أن تكون (المرأة) يهودية ـ أوروبية، أو يهودية ـ أميركية، فهذا ما لم يُفهم مطلقاً كتناقض.. أما أن تكون يهودية ـ عربية فهذا أُعتبر بمنزلة مفارقة منطقية، بل وحتى ضربٌ من ضروب الخيال.. لقد أدت فكرة النقاء القومي إلى فصم الهوية وتجزئتها إلى جزءين، وهو ما انتشر في أعقابه بين اليهود ـ العرب انفصام كياني. وللمرة الأولى في تاريخنا، طُرحت العربية واليهودية كقطبين متعاكسين لا يستطيع أحدهما أن يحتوي الآخر. فالحدود السياسية التي نَمت من حولنا أوجدت واقعاً جديداً التهم كل الجالسين على الجدار.

«في العراق كنا يهوداً..» ـ قال أبي وأمي عندما وصلا إلى إسرائيل في العام ١٩٥٠ ـ «.. وفي إسرائيل نحن عرب»..

أما اليوم فإن الخطاب الثقافي الغربي لا يعترف سوى بالصلة القائمة بين اليهودية والمسيحية، ويتغاضى كلياً عن الصلة التي تربط بين اليهودية والإسلام. وبناءً على ذلك، تجد أن اصطلاح «الثقافة اليهو ـ مسيحية» رائج في البحث الأكاديمي، في حين يُنظر إلى مصطلح الـ «يهود ـ إسلامي» كأمر غير ممكن. لكن الثقافة اليهودية ـ الإسلامية، قامت وتنفست وازدهرت في الشرق الأوسط وفي شمال افريقيا وفي اسبانيا قبل العام ١٤٩٢م، وفي الأجزاء الاوروبية من الامبراطورية العثمانية.. وقد وُصفت حياة اليهود في العالم الاسلامي في صفحات التاريخ ككابوس مستمر من القمع والاذلال.. وفي الواقع، ليس في نيتي، حتى في لحظات الحنين هذه، أن أزعم أن الوجود اليهودي في الدول العربية كان خالياً من التوترات والتمييز وحتى العنف، لكن المقارنة، كتلك التي أجراها جورج بوش بين صدام حسين وبين هتلر، كما لو أن العراق يمثل استمراراً لألمانيا النازية في الشرق الأوسط، لَهي مقارنة فظّة، ومثيرة لحفيظة حتى أكثر الناس لا مبالاة تجاه ماضيهم العراقي. صحيح أن صدام هو بالفعل ديكتاتور، بيد أنه لم يكن للكارثة أي مثيل على الإطلاق، في العالم الاسلامي. وحتى محاكم التفتيش التي جرت في العصور الوسطى في اسبانيا والبرتغال، بعصا الكنيسة الكاثوليكية الجارحة، انغرست في اليهود وفي المسلمين على حد سواء، حيث كان هؤلاء وأولئك ضحايا التعصب المسيحي.

فتاة يهودية يمنية في إسرائيل تعود إلى لباس أهلها التقليدي

فتاة يهودية بخارية في إسرائيل تعود إلى لباس أهلها التقليدي

مشاريع التقسيم التي حاكها الاستعمار بنجاح قبل أن يرحل ويقفل الباب وراءه، خلفت جروحاً عميقة لدى مجموعات سكانية، وجدت نفسها فجأة تعبر الحدود الجديدة في اتجاهات متعاكسة.. ففي الوقت الذي طرد فيه الفلسطينيون إلى ما وراء الجدران التي أُقيمت للتو، وسُلبوا بالتالي من ممتلكاتهم وأراضيهم وحقوقهم، فقد نضجت العملية التي أفضت إلى اقتلاع يهود الدول العربية من ممتلكاتهم وأراضيهم وجذورهم في أقطار الاسلام. وسواء

في اسرائيل، ومنذ أن دخلت أجهزة التلفزيون إلى بيوتنا، أحببنا مشاهدة البرامج التي تُبث من الاردن ومصر أو لبنان، خصوصاً عندما تتحدث أخبار التلفزيون عن بغداد. كان والداي ينفعلان برؤية المشاهد المعروفة لهما، بل ويحاولان جاهدين تشخيص الشوارع والمناطق التي عرفوها.

كلاجئين، أم كمهاجرين أم كقادمين (تبعاً لوجهة النظر السياسية للناظر) فقد تركنا وراءنا كل عالمنا. اضطر يهود عراقيون للتخلي عن جنسيتهم العراقية وتسلموا بدلاً منها وثيقة المرور (الـ«لاسيه باسيه») وصعدوا على سلم الطائرة التي أحضرتهم إلى قبرص، ومن هناك واصلوا طريقهم إلى إسرائيل.

ووسط ألم على ما تُرك وراءهم، وأمل فيما قد يأتي، نزلوا من بطن الطائرة، المجهولة، ودلفوا إلى الواقع الجديد الذي لطم وجوههم، بينما كانت أجسادهم كلها مدهونة بمادة الـ (دي.دي.تي).

بعد النزوح عن بغداد، لم يشعر والداي على مدى سنوات طويلة، في إسرائيل، بـ«دولة اليهود» إذ عاشا، بصفة لاجئين، حياتهما اليومية في ظل جنسية اسرائيلية وفي ظل شعور من النفي والاغتراب الدائم. ولا يزال ماثلاً في ذاكرة أبي، يومه الأول في العمل، عندما تحدث باللغة العربية مع عمال آخرين، فنال وجبة توبيخ من رئيس العمل الإشكنازي الذي أمرهم بالكف، وزجرهم بلهجة جافة مشدداً «هنا ليست دولة عربية!». كما ولا تزال حاضرة في ذاكرة أُمي سَفْرتُها في الحافلة، والتي وَلَّدت لدي، أنا ابنتها الصغيرة، نظرة سخط وتذمر، بعدما تفوهت بكلمات الـ«بنتي» والـ«بدالك»...لا يزال محفوراً في ذاكرتنا نحن الاولاد، الإلحاح على أبي أن يتدرب على الكمان لكي يخفي لهجته.. وحتى الآن لم تمح من ذاكرتنا لهفتنا وتحلقنا حول الراديو الذي انبعثت منه أنغام المقام (العراقي) والتي غابت بتدوير حاد لمؤشر المحطات، عندما كانت تسمع في مدخل البيت خطوات اصدقاء إشكناز.. وهكذا تحولنا نحن الى عملاء مخلصين للمؤسسة، نرصد بتوتر وانفعال أي انحراف عن الطريق المرسوم، لنضمن بتعصب تكوُّن نظام المؤسسة الثقافي، ونموّه تحت سقفنا ليتغلغل في أعماق نفوسنا..

ولكي نكون إسرائيليين، فقد تعلم الكثيرون منا شطب جسدهم.. لقد أضحى الجسد الشرقي عدواً لنا.. اللون، المنظر، اللباس، الرائحة، لهجة الكلام.. فمظهرنا الخارجي كان في الغالب يومئ إلى هويتنا، الأمر الذي جعل الكثيرين منا يستوعبون «النظرة» الاشكنازية التي تسخر منا، والاقتناع بحقيقة صورتنا البشعة المنعكسة في المرآة الاوروبية الإسرائيلية التي وضعت أمام أنظارنا. أحياناً تبنينا فهماً ذاتياً مشوهاً مؤاده ان المنظر الشرقي، بشع ومُنفرٌ ومثير للاشمئزاز والقرف.... وحتى الآن فإن معظم الدعايات في إسرائيل تسوق المنظر الأبيض الناصع كعامل يُسهم في المبيعات، وهي تقول لجمهور كامل أن منظره لن يصبح أبداً محل جاذبية، وشرعياً.

صحيح أنه كانت هناك أيضاً نظرة اشكنازية رمقتنا بحب، من منطلق انجذاب للإثارة الشرقية، لكن هذه النظرة حولتنا كذلك، في الغالب، إلى «آخرين»، إلى اشياء، مشاهد، في الخيال الجامح عن العاطفية، البساطة، السذاجة والخنوع.. وسواء عن طريق السخرية أم عن طريق الرغبة والإثارة، فقد تم استيعاب الـ«نظرة» الاشكنازية كجزء من حالة الرفض الذاتي في تجربة الفرد الشرقي.. لقد أفضى الجزع والخوف من التصنيف: «عراقية»، «يمنية» أو «مغربية» إلى عُقدة الشَعْر الأشقر.. فبالنسبة للمرأة الشرقية، كان تفتيح لون الشعر يحمل معنى الشطب الذاتي، وفي نفس الوقت، معنى البقاء في مجتمع يسجد للجمال، للبهاء والجاذبية الجنسية، كما حُدت بموجب مرسوم أوروبي..

وفي زحمة المفترق العاطفي، المكتظ في إسرائيل، شرع يهود أوروبا يزيحون عن كاهلهم رواسب مشاعر الدونية تجاه أوروبا، في وقت أخذ فيه يهود الشرق يشحنون هذه الرواسب تجاه أسياد البلاد، الأوروبيين. رجالُ شرقيون كثيرون حلقوا شاربَهُم الـ«عربي» وتقلدوا حول رقابهم قلادات نجمة داود، لتبرز انتماءهم اليهودي الذي بدا ظاهرياً في تناقض مع ملامحهم العربية. وكان هناك من جرى تشخيصهم بطريق الخطأ كفلسطينيين، وبسبب ذلك اعتقلوا بل وحتى ضربوا.. فمن جهة اولى، كانت هويتنا العربية قوية كفاية حتى نُقاسي وطأة نعال العنصرية، لكن، من جهة ثانية، لم يكن لهذه الهوية أي حضور في عالم المفاهيم الايجابي.

ففي جهاز التعليم، في تدريس الأدب، التاريخ، الجغرافيا، الموسيقى والفنون، مُحيَ كل أثر للشرقية.. وفي أتون التكون القومي لصهر الهويات اليهودية، وجدنا أنفسنا في وضع بلا مخرج، مسلوبين من تاريخنا ومن عروبتنا.. موسيقيون عراقيون – يهود معروفون، عزفوا في دار الاذاعة العراقية، (قبل هجرتهم) وتم تبني ألحانهم الأصلية من جانب مطربين

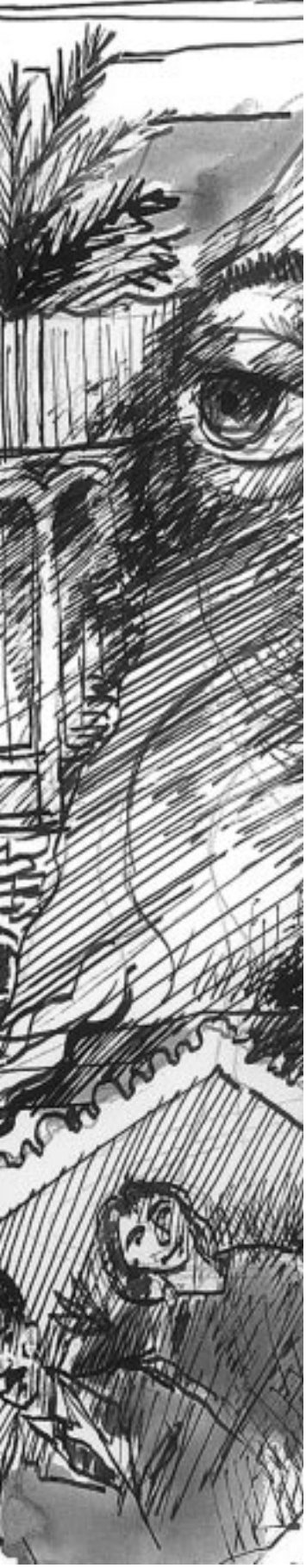

عرب مشهورين، تحولوا بين ليلة وضحاها إلى عمال منكودين، صارعوا وكافحوا في سبيل كسب قوت معيشتهم اليومية، طوال عشرات السنين.. في المقاهي الصغيرة، في الأحياء الشرقية (وفي إسرائيل)، في الحفلات والأعراس العائلية، قوبلوا بالترحاب والتصفيق وبإحياء أمجادهم.. هناك تصدعت وأُخترقتْ الهوية القومية السائدة، الاشكنازية. في المجال الشخصي- المجتمعي (الطائفي) بدأت تُحبك وتتكون الرواية المضادة التي أخلَّت بالنظام القومي. نحن كذلك، الأولاد، وبعيداً عن أعين المؤسسة المفتوحة، أغفلنا للحظة، المنع.

لقد وَلّدَ محو الهوية والتاريخ صدعاً بين الأجيال في صفوف عائلاتنا، بين الجيل الذي عاش العراق، وذاك الذي خبرها كنمط حياة مستتر بين جَنَبات وجدران البيت.

وحيث أنه لم يكن ثمة ذكر لنتاجنا وابداعاتنا الثقافية في اللغات العربية، والعبرية والآرامية، في المدارس، فقد ظهرت أمام أنظار أولاد المهجرين صورة مشوشة وباهتة للحياة في بغداد، في فاس، في تونس، في صنعاء، في الاسكندرية وفي حلب. ويحاول الخيال خِلسة، مستجمعاً بقية قواه، كحال الجريح المحبوس في مصطلحات ومفاهيم الحدود السياسية، أن يخطو في الدرب المؤدي صوبها، وهو يحبو ببطء، رغم الألم الذي يمزق جسمه، لكن يد سجانه، لا تتأخر عن الامساك به وإعادته إلى سجنه.

كثيرون هم الذين تحولوا إلى عبيد للذاكرة الرسمية لدولة إسرائيل. الرواية الصهيونية لجمع الشتات، وللشعب الواحد الذي عاد إلى موطنه القديم، سحقت رواية الاعتزاز بالماضي الذي سبق العودة إلى «أرض الميعاد».

بين أمتعتهم القليلة، حمل والداي معهما عدداً من الصور.. ها هما أبي وأمي على سطوح البيت في بغداد يزخران حيوية، كما لو أنهما يشهدان على وجود آخر.. وقد واجهت صعوبة على مرّ السنوات في تذليل التناقض بين هذه الشخصيات التي نظرت اليَّ برقَّةٍ وطمأنينة، وبين نفس الاشخاص الواهنين المنهكين الذين عرفتهم.

لغاية الآن لم يسمح لنا بأن نبكي علناً الفاجعة والصدمة التي ألَّمت بنا جراء النزوح المباغت.. العودة، التي كان من المفروض أن تكون «خلاصاً من الشتات»، كانت، عملياً، تدميراً لنسيج الحياة الدقيق بين العراقيين اليهود والمسلمين. فمشاهد الدمار والخراب في العراق، كما بدت على شاشة التلفزيون، إبان حرب الخليج، مسَّت الحنين الكامن للوطن.. والفاجعة، التي تعلمنا جيداً كيف نخفيها، عادت لتطفو على السطح، كما لو أنه لم تمض عشرات السنين منذ اجتياز الحدود من العراق إلى إسرائيل. ورغم مسافة الزمن، ورغم تشوش الذاكرة، فلا يزال والداي في حنين لمشاهد وضوضاء بغداد. وليس عبثاً أن الشرقيين في إسرائيل تحولوا إلى مشاهدين ملهوفين لبرامج التلفزيون وأفلام السينما التي تُبث من الاردن ولبنان ومصر، حتى حينما كانت هذه مثيرة للملل.

في اسرائيل، ومنذ أن دخلت أجهزة التلفزيون إلى بيوتنا، أحببنا مشاهدة البرامج التي تُبث من الاردن ومصر أو لبنان، خصوصاً عندما تتحدث أخبار التلفزيون عن بغداد. كان والداي ينفعلان برؤية المشاهد المعروفة لهما، بل ويحاولان جاهدين تشخيص الشوارع والمناطق التي عرفوها.

حاولا تتبع ومعرفة ما إذا كانت قد طرأت بالفعل تغييرات في الشوارع التي عرفوها، وما اذا كانت قد شيدت أو هدمت بيوت في الاحياء التي كانت يهودية، أم أن ذلك لم يكن سوى ضرب من تهيؤات الخيال.. في خريطة بغداد الجديدة، لم يبق أي ذكر لأسماء الأماكن التي عرفها والداي. المقبرة اليهودية، حيث يرقد جدي، دفنت منذ وقت بعيد، كما تروي الشائعات، تحت مبنى محطة التلفزيون العراقي.

سليمة فاشا، رحلت عن العالم، وناظم الغزالي لم يعد بين الأحياء، لكن المقام الذي أنشدوه وتغنوا به، يسمع مراراً وتكراراً من الشريط البالي الذي جرى بثه للمرة الأولى في سنوات الستينيات في التلفزيون العراقي.

وكشاهدة على المنفى البابلي في «أرض الميعاد»، لم يبق لي إلاّ أن أرثي البُعْد عن بغداد تلك الأيام، وإنني لأنضم لأردد معهم أُغنية الحنين والاشواق التي تغنيها أُم كلثوم «كان زمان». وعندما أتأمل المرثية التوراتية المعروفة، فإنه لا يبقى لي ببساطة سوى ان أُعدلها:

«على ضفاف أنهر صهيون، هناك جلسنا وبكينا حينما تذكرنا بابل».